مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

لمحة تاريخيّة عن مملكة سُنغاي الإسلاميّة

(1468-1591 م)

الدكتور
قمر الدين محمد فضل الله

تهدف هذه الدراسة إلى القاء المزيد من الضوء على الدور البارز الذي قامت به مملكة سنغاي الإسلامية في تبنيها لمظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي تجسدت في الكثير من نظمها السياسية والاجتماعية والثقافية ، وبخاصة في عهد أسكيا محمد الكبير (1493-1528 م) . كما تهتم الدراسة بتتبع الجوانب الإيجابية والسلبية التي واكبت حكم خلفاء السلطان المذكور ، كما تتناول ـ أيضاً ـ الأسباب الرئيسة التي أدت إلى سقوط هذه المملكة الإسلامية ، على أثر الحملة المراكشية في عام 1591 م .

وبما أن مملكة سنغاي الإسلامية

(1468-1591 م) ، هي آخر ممالك السودان الغربي التي ازدهرت في المناطق الواقعة ما بين حوضي نهر السنغال ونهر النيجر ، فهي لا تختلف كثيراً عن رديفتيها ، مملكتي غانا ومالي ، في استجابتها لمؤثرات الثقافة العربية الإسلامية الوافدة من الشمال الافريقي والتي اتسعت رقعتها في تلك الجهات خلال قرون قليلة ، منذ أن توطد الإسلام في الشمال الافريقي في القرن الثامن الميلادي . فالثقافة التي سادت في مملكة سنغاي مغربية السمات ، والمذهب الذي طغى عليها هو المذهب المالكي الذي نشره المرابطون إبان توسعهم في السودان الغربي في القرن الحادي عشر الميلادي .

لقد برزت مملكة سنغاي كياناً مستقلاً ـ شأنها في ذلك شأن مملكة مالي الإسلامية ـ في أعقاب ثلاث مراحل تاريخية متتالية . فالمرحلة الأولى ، اقترنت بالتجارة ، وبمتطلبات المراعي ، وتدفق الهجرات البشرية بين شمال القارة الافريقية وبين غربها ووسطها ، وكان العرب المغاربة ـ من تجار وعلماء وبدو ـ دعامة هذه المرحلة . وقد استفادت الجاليات العربية من الإبل وسيلة للنقل في رحلاتها المستمرة إلى جنوب الصحراء الكبرى مخترقة عدة منافذ لطرق القوافل التجارية ، ومن أشهرها : ـ

(أ) الطريق الممتد من تغازة إلى تنبكتو ، المعروف بطريق الذهب[1] .

(ب) الطريق الوافد من طرابلس الغرب أو من القيروان والذي يمر بفزان وينتهي في منطقة كانم حول بحيرة تشاد[2] .

(ج) الطريق الذي يبدأ من الموانىء الجزائرية الهامة ويتجه إلى كوكو في أواسط نهر النيجر .

(د) الطريق الذي يأتي من المغرب الأقصى محاذياً ساحل المحيط الأطلسي إلى بلاد تكرور الواقعة في أعالي نهر النيجر وحوض نهر السنغال .

وكانت الجاليات العربية وطرق القوافل التجارية تتبع مركز الثقل السياسي والاقتصادي في السودان الغربي ، إذ تحولت ـ في بادىء الأمر ـ إلى غانا ،

---

(1) Bovill. E. W., **The Golden Trade of the Moors Oxford U. P. 1968, P. 236.**

(2) Lombard, M., **The Golden Age of the Islam,** Amsterdam, 1975 P.P. 223-4.

وبسقوطها اتجهت نحو مالي ، ثم إلى سنغاي . وكان قوام التجارة مقايضة الملح بالذهب الذي يكثر تواجده في أعالي السنغال والنيجر وفولتا العليا وأشانتي[3] فحاجة أهل السودان للملح كانت ملحة ، لأن مواردهم منه لا تغطي الاستهلاك المحلي[4] . ومن ثم ، ازدادت رغبتهم في ملح الشمال الافريقي الذي أصبح السلعة الرئيسة التي يجلبها لهم التجار العرب ، إلى جانب بعض السلع الأخرى ، وتشمل الأقمشة والمصنوعات المعدنية والجلدية والأصداف والعطور والقطران وغيرها . .[5] .

ولأهمية الملح القصوى في حياة أهل السودان الغربي ، صار عملة شرائية يصرفونها ويقايضون بها ـ أحياناً ـ بوزنها ذهباً[6] . وقد لعب معدن الذهب دوراً كبيراً في توطيد العلائق بين السودان الغربي وبين الشمال الافريقي ، وعلى وجه الخصوص المغرب الأقصى ، حيث كان التجار المغاربة يقومون بدور الوسيط في تجارة الذهب الدولية مع أوربا وأقطار العالم الأخرى . ويعد السودان الغربي المصدر الرئيسي للذهب حتى كشف الأمريكتين ، ويقدر عالم الآثار « موني » Mauny ان حجم ما تصدره مناطق السودان الغربي من الذهب كان يقدر بحوالي تسعة أطنان من الذهب سنوياً[7] . وأدى ذلك كله ، إلى نمو الصلات بين الجاليات العربية والوطنيين الافارقة ، إذ لم يكتف التجار العرب بتنظيم تجارة القوافل فحسب ، بل عملوا على إقامة أحياء خاصة بهم لاستقرارهم ، وذلك في العديد من المراكز التجارية السودانية مثل نياني وتنبكتو وكوكو وجني وأودغست وأوران .

وقد بدأت منذ المرحلة الأولى ـ مرحلة الاحتكاك السلمي ـ مخالطة الجاليات العربية الوطنيين الأفارقة السكن ، وكثرت بينهم المصاهرة ، مما أدى إلى تسرب الإسلام تدريجياً إلى سنغاي وإلى ما سبقتها وعاصرتها من ممالك افريقية سودانية .

---

(3) Bovill. E. W., Op. cit, P. 121

(4) ابن حوقل ، محمد : صورة الأرض ، بيروت ، 1979 ، ص 98 .

(5) الطيبي ، أمين توفيق : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1984 ، ص 304 .

(6) ابن بطوطة ، محمد : تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ، القاهرة 1964 ، ص 192 .

(7) عوض الله ، الشيخ محمد الأمين : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي ، جدة ، 1979 ، ص 157 .

كما كان للدعاة المسلمين الفضل الكبير في نشر العقيدة الإسلامية بين الوطنيين الأفارقة ، لما يتحلون به من حسن الخلق ونظافة البدن وأدائهم الصلوات في مواقيتها[8] . ومما ساعدهم ـ أيضاً ـ تعاملهم مع الأسر الحاكمة الافريقية ، حيث تبوأ بعضهم مراكز عليا في الدولة كوزراء ومستشارين وكتاب ، فأثروا في هذه الأسر وتأثروا بها ، ونتج عن كل هذا ، اعتناق عدد كبير من أفراد الأسر المعنية الإسلام عن قناعة تامة ، ومن ثم ، تبعتهم الرعية .

أما المرحلة الثانية ، فتتمثل في جهاد قبائل صنهاجة الصحراء الثلاث (لمتونة ومسوفة وجدالة) التي تبنت تعاليم الإمام المجاهد عبد الله بن ياسين الجزولي[9] ، الفقيه المالكي ، الذي أنشأ رباطاً على مقربة من نهر السنغال وسمى أتباعه بالمرابطين .

واعتماداً على الطاقة المقاتلة للأمير اللمتوني أبي بكر بن عمر[10] وقبائل صنهاجة ، تمكن المرابطون من إدخال القبائل الافريقية الوثنية المجاورة في الإسلام . كما استطاعوا انتزاع أودغست عام 1054 م من مملكة غانا التي ظلوا ينازعونها النفوذ حتى أسقطوها في عام 1076 م ، ثم توسعوا في رقعة واسعة من أراضيها ، الشيء الذي مهد الطريق إلى انتشار الإسلام بين ملوك غانا وبين رعاياهم ، المعروفين بقبائل السوننكي الذين انتشروا في السودان الغربي وحملوا معهم الإسلام إلى شعوبه الوثنية ومن بينهم شعب سنغاي .

وبالنسبة للمرحلة الثالثة ، فقد استهلت بقيام مملكتين إسلاميتين هما ـ على التوالي ـ مالي وسنغاي . ولعل أبرز ظاهرة لهذه المرحلة ، هي انتقال الزعامة الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية إلى الوطنيين ، سواء أكانوا من السودان الخلص ،

---

(8) أرنولد ، ت . و . : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، طبعة ثانية ، القاهرة 1975 ، ص 393 .

(9) هو أحد طلبة العالم المالكي وجاج بن زلّوا اللمطي الذي رشحه لأمير صنهاجة إبراهيم بن يحيى لهداية أهله إلى التعاليم الصحيحة للدين الإسلامي الحنيف . فأقام عبد الله بن ياسين رباطاً على مقربة من مصب نهر السنغال ليكون رابطة للعبادة ، وسمى أتباعه بالمرابطين لملازمتهم الرباط والجهاد .

(10) آلت إمارة صنهاجة إلى أبي بكر بن عمر بعد وفاة أخيه يحيى بن عمر في سنة 1056 م ، ومن ثم تولى القيادة الروحية والسياسية للمرابطين بعد استشهاد عبد الله بن بن ياسين في 1059 م . وإلى أبي بكر بن عمر يرجع الفضل في توسع المرابطين في السودان الغربي وإسقاطهم لمملكة غانا الوثنية ونشرهم الإسلام على مذهب مالك .

أم المولدين الجدد الناتجين عن اختلاط الدماء العربية بالدماء الافريقية السودانية . وتمثلت هاتان المملكتان ـ في كافة معاملاتهما ـ مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ، وإن كانت نظمها السياسية قد جمعت بين أطرٍ أفريقية وأنماط إسلامية . كما حرص الملوك فيهما على الانتساب إلى نسب عربي شريف ، فسلاطين مالي وسنغاي ، يزعمون انتسابهم الى الحسن بن علي[11] ، وذلك لاكتساب شرعية دينية تعزز من مكانتهم في أعين مواطنيهم .

وفي إطار هذه المقدمة ، يتعين علينا أن نشير ـ ولو بإيجاز ـ إلى مملكة مالي التي كانت سنغاي أحد أقاليمها . والمعروف ان مدينة تنبكتو التي تزعمت الحياة الثقافية والاقتصادية في سنغاي ، كانت في قبضة مملكة مالي ، حيث أدخلها السلطان منسى موسى في حظيرة دولته عام 1325 م وظلت حتى عام 1433 م تابعة لها[12] ، إلى أن آل أمرها إلى طوارق مسوفة ، وذلك بعد أن أصبح ملوك مالي غير قادرين على توفير الأمن والطمأنينة لسكان هذه المدينة[13] .

وقد أنشئت دولة مالي الاسلامية على يد شعب الماندنجو (1238-1488 م) وكان أول ملوكها سندياتا (1230-1255 م) الذي كان وثنياً ، ثم أسلم ـ فيما بعد ـ وعرف « بالمسلماني » . غير أن منسى موسى يعد من أشهر ملوك مالي قاطبة . وفي عهده امتدت رقعة مالي بين نهر السنغال وبحيرة تشاد في الشرق ، وشملت خمسة أقاليم هي : ـ مالي ، غانا ، كوكو ، صوصو ، تكرور (السنغال) . كما ضم سنغاي إلى حظيرة دولة مالي الإسلامية .

ويصف القلقشندي السلطان منسى موسى بأنه « . . كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً له أخبار العدل تؤثر عنه ، وعظمت مملكته في أيامه . . »[14] والجدير بالذكر أن مالي ، في أيامه ، قد شهدت ازدهاراً إدارياً واقتصادياً ، بحيث سيطرت على معظم مناجم الذهب والنحاس والملح في السودان الغربي[15] .

---

(11) حسن ، يوسف فضل : « إنتشار الإسلام في أفريقيا » ، محاضرة في الموسم الثقافي لعام (1295-1296 هـ ـ 1975/1976م) ، وزارة الثقافة والإعلام ، دولة الإمارات المتحدة ، ص 103 .

(12) Elias N. Saad, **The Social History of Timbuktu,** 1983, P. 11.

(13) نفسه ، ص 40 .

(14) طرخان ، إبراهيم علي : دولة مالي الإسلامية ، القاهرة 1973 ، ص 74 .

(15) المرجع نفسه ، ص 79 .

وكانت حجة السلطان منسى موسى المشهورة للأراضي المقدسة في الحجاز عام 1324 م بادرة طيبة لتوثيق علاقات بلاده بالممالك الإسلامية المعاصرة في المشرق العربي . ويقال إن قافلة الحج التي اصطحبها قد ضمت نحو عشرة آلاف مرافق ، ومائة جمل محمل بالذهب الخالص ، وكان الجمل الواحد يحمل ثلاثة قناطير[16] . وقد صرف منسى موسى كل ذلك الثراء العظيم ـ أثناء رحلته تلك ـ التي جعلت العلماء والتجار يتقاطرون بأعداد كبيرة على مالي ، فازدهر النشاط الاقتصادي ، وتبع هذا جميعه أنتعاش ثقافي . فبرزت أهمية مالي العالمية ـ في المجالين الثقافي والاقتصادي ـ بحيث ظهرت في الخريطة القطالونية التي أعدها الجغرافي الميورقي إبراهيم كريسك في حوالي عام 1375 م[17] . كما نشطت الحركة العمرانية في البلاد على النمط المغربي والأندلس الذي أدخله الشاعر والمهندس الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي[18] .

غير أن هذا الازدهار الذي حققته مملكة مالي في تلك الفترة سرعان ما تحول إلى تفكك وضعف نتيجة للصراع على السلطة . ولم يستطع شقيق منسى موسى ـ السلطان منسى سليمان ـ أن يتصدى لمحاولات تمزيق مملكته . فاستعاد « تكرور » (السنغال) بعض أراضيهم من مالي واستقلّت « وَلاتَة » ، ثم انتقلت زعامة السودان الغربي ، بعد وفاة منسى سليمان (ت . 1360 م) ، تدريجياً إلى مملكة سنغاي .

الملك سنى علي وتأسيس مملكة سنغاي الإسلامية (1464-1492 م)

كان ملوك سنغاي الأوائل من العرب المغاربة من قبائل « لماطة » الذين اختلطت دماؤهم بالدماء السودانية . ويبدو ، انهم قد استفادوا من نظام الوراثة من ناحية الأمومة ، وهو نظام كان سائداً في المجتمعات الافريقية .

ويروي السعدي أن أربعة عشر ملكاً وثنياً اعتلوا عرش سنغاي[19] ، قبل

---

(16) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج 5 ، بيروت 1959 ، ص 932 .

(17) الطيبي ، أمين توفيق ، المرجع السابق ، ص 312 المرجع نفسه ، ص 311 .

(18) المرجع نفسه ص 311 .

(19) Barth, H., **Travels and Discoveries, in North and Central Africa,** Frank Cass and Co. Ltd., 1965, P. 283.

إسلام الملك « كوساي » الذي أسلم حوال 1010 م وعرف باسم « مسلم - دام »[20] .

وقد قام الملك سنى علي ، حين تبوأ عرش سنغاي في عام 1464 م بدور هام في ميلاد هذه الدولة ، إذ انتزع استقلالها من مالي . كما استولى على تنبكتو في عام 1468 م [21] من طوارق مسوفة ، وبعدها أدخل مدينة « جني » الاستراتيجية في حظيرة دولته التي اتسعت رقعتها في عهده[22] .

ويؤخذ على الملك سنى علي قسوته وشراسته مع أهالي مملكته ، وعلى وجه الخصوص علماء تنبكتو .

وقد شكك الكثير من المؤرخين في صدق إسلامه واعتبروه تياراً مضاداً للإسلام ، على نقيض السلطان أسكيا محمد الكبير . كما نعته السعدي بأنه « كان ذا قوة عظيمة وبنية جسيمة ، ظالماً فاسقاً معتدياً ، متسلطاً سفاكاً للدماء ، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله ، وتسلط على العلماء الصالحين بالقتل والإذلال »[23] .

أما ترمنجهام فيبرر استعداء سنى علي علماء تنبكتو بأنه كان يعتقد أنهم يتصرفون وكأنهم يمثلون دولة داخل دولة ، الأمر الذي حدا به أن يكسر شوكتهم ، حتى لا يتحرشوا بسلطته[24] . . ولكن ، مهما قيل عن تصرفات سني علي ، فإليه يرجع الفضل في تدعيم أركان دولة سنغاي الإسلامية . كما لم يجزم أحد بعدم إسلامه . فالمؤرخ عبد الرحمن السعدي نفسه ، اعترف - بأمانة - أن سني علي كان يردد في أقواله فضل العلماء في الدين والدنيا[25] فضلاً عن أنه كان يخصص ساحات لأداء الصلاة في شهر رمضان المبارك[26] .

ولم يكن حظ مدينة جني من المعاملة أسعد حالاً من تنبكتو . وقد ذكر بعض

---

(20) الطيبي ، أمين توفيق ، المرجع السابق ، 314 .

(21) Richard, Adaly, **West Africa: Yesterday and Toay,** New York 1964, P. 113.

(22) عوض الله ، الشيخ محمد الأمين ، المرجع السابق ، ص 67 .

(23) السعدي ، عبد الرحمن : تاريخ السودان ، نشره وعلق عليه هوادس وتلميذه بنوه ، باريس 1964 ، ص 64 .

(24) Trimingham. J. S., **A History of Islam in West Africa** Oxford U. P. 1962, P. 94.

(25) Elias N. Saad, Op. Cit, P. 42.

(26) نفسه .

المؤرخين أن سنى علي أجبر أهلها من الطوارق على ترك المدينة حاملين معهم أمتعتهم وأموالهم على متن حوالى ألف جمل ،رحلوا بها إلى «ولاته» ، فضرب الكساد الإقتصادي أطناب المدينة ، ولم يستقم عودها وإزدهارها ، إلا في عهد أسكيا محمد الكبير[27] .

اعتلى أبو بكر داعو العرش بعد وفاة والده سنى علي في عام 1492 م[28] ، غير أنه لم يقو على مقاومة القائد محمد توري - أحد قواد الملك الراحل - الذي اغتصب الملك في عام 1493 م ، وتسمى بأسكيا محمد ، معلناً بذلك قيام عهد جديد في تاريخ سنغاي ، عرف باسم عصر الأسيكيين .

أسكيا محمد الكبير وإنجازاته (1492-1528 م)

عرف أسكيا الكبير منذ توليه مقاليد الحكم في سنغاي خلال الفترة (1492-1528 م) بأنه كان عسكرياً وإدارياً مقتدراً . ومما يؤكد ذلك مبادرته باستقطاب القضاة والفقهاء ، حيث نال احترامهم وتقديرهم ولقبوه بالإمام المنتصر والخليفة العادل والسلطان الظافر[29] كما قام بتنظيمات إدارية واسعة النطاق أبرزت قيادته الرشيدة وسداد رأيه .

خرج أسكيا محمد الكبير - كعادة الملوك الأفارقة المسلمين حاجاً لمكة المكرمة في 1497/6 م واصطحب معه حسب رواية صاحب تاريخ الفتاش ثمانمائة حاج[30] . أما السعدي ؛ فقد قدر عدد المرافقين له - في تلك الرحلة - بحوالى خمسمائة وألف مرافق[31] . كما يقال أنه قد تصدق بمائة ألف دينار من الذهب واشترى بمثلها نزلاً للحجاج السودانيين[32] .

وكانت تلك الرحلة المشهودة عاملاً قوياً لتوطيد علاقات أسكيا محمد الكبير

---

(27) عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الأسيقين الجزائر (بدون تاريخ) ، ص 106 .

(28) عوض الله ، الشيخ محمد الأمين ، المرجع السابق ، ص 67 .

(29) Elias N. Saad, Op. cit, P. 46.

(30) محمود كعت التنبكتي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، نشر هوداس وتلميذه بنوه ، باريس 1964 ، ص 19 .

(31) السعدي ، عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص 72 .

(32) محمود كعت ، المصدر السابق ، ص 19 .

بالدوائر الرسمية في المشرق العربي . فبالرغم من أن بعض المصادر أشارت إلى أنه قد زار الخليفة العباسي في القاهرة وحظي منه بلقب « خلافة بلاد التكرور » ، فإن معظم المؤرخين يميلون إلى القول أن الذي قام بتقليده هذا اللقب هو شريف مكة[33] ، ويعللون ذلك بالحفل الذي أقامه على شرفه في الحجاز ومنحه فيه سيفاً ، أصبح ـ فيما بعد ـ رمزاً لشرعية الحكم ، يستخدم عند تنصيب ملوك سنغاي الجدد[34] .

لقد وضع أسكيا محمد الكبير أساساً إدارياً حديثاً ، استلهمه مما شاهده في المشرق العربي . فقام بتقسيم دولته المترامية الأطراف إلى ست ولايات رئيسة هي : ـ كورما ، بالاما ، دندي ، بانجو ، هاريباندا ورئاسة نهر النيجر . كما عين ولاة في هذه الأقاليم ممن يثق في ولائهم وكفاءتهم .

ومن الانجازات الأخرى ، نظم أسكيا محمد خزينة الدولة وحدد إيراداتها ومصروفاتها وعين القضاة ليفصلوا في الخصومات بين الناس وفق الشريعة الإسلامية . كما دعم الجيش والأسطول . وبالأحرى ، وضع نظاماً إدارياً متماسكاً ، يرجع إليه فضل بقاء دولته ـ من بعده ـ لما يقرب من ثلاثة وستين سنة ، رغم الهزات العنيفة التي مرت بها .

وقد غلب الجهاد الإسلامي على توسع مملكة سنغاي . وفي عهد أسكيا محمد الكبير أعلن الدين الإسلامي ديناً رسمياً للدولة وقام بفتوحات كثيرة ، حتى إن دولته جاوزت حدود مملكة مالي التي سبقتها ، وضمت مناجم الملح في تغازة ، وشملت شرقاً بعض إمارات الهوسا ، حتى تاخت بورنو ، وشمالاً إلى حدود المغرب الأقصى[35] .

وقد حاول بعض المؤرخين ـ وفي طليعتهم ـ المستشرقون الأوربيون ـ الذين أرادوا أن يواصلوا الحرب الصليبية بحرب كلامية ـ ان يدمغوا حركة الجهاد التي تبناها أسكيا محمد الكبير وغيره من المجاهدين الأفارقة ، بأن الإسلام قد انتشر بحد السيف . ويبدو أن هؤلاء المُرْجفين قد نسوا أن حروب الجهاد ضد الوثنيين

---

(33) Elias N. Saad, Op. cit, P.48.

(34) نفسه .

(35) حسن ، يوسف فضل ، المرجع السابق ، ص 101 .

جاءت من منطلق الغلبة السياسية للمسلمين في السودان الغربي وفي نطاق الدفاع عن النفس ، ومما يؤكد ذلك مشاركة الوثنيين الجماعات الإسلامية الوطن الواحد وقتاً طويلاً ، في روح من التسامح الديني .

إيجابيات خلفاء أسكيا محمد الكبير وسلبياتهم (1528—1591 م)

وصل إلى العرش بعد أسكيا محمد الكبير سبعة ملوك خلال الفترة ما بين 1528 و1591 ، وهم : ـ أسكيا موسى (1528-1531) ، وأسكيا محمد الثاني (1531-1537) ، وأسكيا إسماعيل (1537-1539 م) ، وأسكيا إسحاق الأول (1539-1549) ، وأسكيا داود (1549-1582) ، وأسكيا محمد بان (1586-1588 م) ، ثم أسكيا إسحاق الثاني (1588-1591) م .

وفيما عدا أسكيا داود ، كان خلفاء أسكيا محمد الكبير يفتقرون إلى القيادة الواعية ، مما جعلهم يقعون فريسة لصراع مرير على السلطة ، وسادت بينهم المؤامرات والفتن ، ولم يحققوا الأمن والطمأنينة لمواطنيهم ، فتلاشى الثراء العظيم الذي شهدته سنغاي في عهد مؤسس حكم أسرتهم(36) .

هذا وقد احتدم التكالب على العرش ، منذ أواخر حكم أسكيا محمد الكبير نفسه الذي امتدت إليه يد الشيخوخة . فتآمر عليه ابنه أسكيا موسى وتمكن من عزله في عام 1528 م ، حيث فُرضت عليه الإقامة الجبرية حتى وفاته في عام 1528 م . . بيد أن أسكيا موسى لم يحظ بتأييد أفراد أسرته ، حيث نازعوه الحكم ، فلجأ إلى سفك الدماء ، وانتهى أمره إلى أن مات مقتولاً .

ومن ملوك سنغاي المشهورين ، أسكيا داود (1549-1582 م) الذي يلي أسكيا محمد الكبير في حسن الادارة وبعد النظر وتجديد دماء الدولة . فاستطاع توطيد نفوذه على نطاق الجبهة الداخلية ، إذ لم تحدث أية ثورة ضده طيلة حكمه الطويل ، كما لم يتوقف عن الجهاد سنة واحدة(38) ، فضلاً عن أنه دعم سياسته الخارجية بإقامة علاقات حميدة مع السعديين في المغرب الأقصى . وكادت الأزمة

---

(36) Bovill E. W. Op. cit, P. 155.

(37) عبد القادر زبادية : المرجع السابق ، ص 31-54 .

(38) المرجع نفسه

التي افتعلها السلطان المراكشي الشريف محمد القائم ، أن تؤدي إلى حرب بين سنغاي ومراكش ، وذلك بعد أن قام الأخير بالاستيلاء على مناجم الملح في تغازة عنوة . غير أن أسكيا داود والسلطان المراكشي الجديد أحمد المنصور السعدي قد اصطلحا على أساس أن تدفع مراكش لسنغاي عشرة آلاف وقية من الذهب ، نظير استئجار مناجم تغازة للملح في العام الواحد[39] .

تصاعدت الأحداث وبلغت ذروتها في عهد أسكيا إسحاق الثاني (1588-1591 م) . وعلى الصعيد الداخلي ، اشتدت الثورات عليه وأفلتتْ منه زمام الأمور . وقد واكب ذلك ان أصيبت مملكة سنغاي نفسها بآفات خلقية مستعصية جعلتها لقمة سائغة للتوسع المراكشي ، في أيام السلطان أحمد المنصور السعدي . وفي هذا الصدد ، يؤكد لنا السعدي أن أهل سنغاي « . . بدلوا نعمة الله كفراً وما تركوا شيئاً من معاصي الله تعالى إلا ارتكبوها جهراً . . »[40] .

الحياة الاجتماعية في مملكة سنغاي

ورث مواطنو سنغاي كثيراً من العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في مملكة مالي الإسلامية . فكانوا يتشبهون بالعرب المغاربة في زيهم وفي فنهم المعماري . ويلاحظ أن « . . لباسهم عمائم بحنك مثل العرب وقماشهم بياض من ثياب قطن . . يسمى الكميصا »[41] وزيهم « شبيه بزي المغاربة جباب ودراريع بلا تفريج »[42] .

أما في مجال العمران ، فكانت منازل الحكام والأثرياء تشيَّد على الطراز المغربي الأندلسي بالآجر . كما كانت العاصمة كوكو حسب ملاحظات الحسن الوزان ـ أدنى مرتبة من الناحية العمرانية من تنبكتو[43] . كما أن سنغاي ـ في الغالب

---

(39) زكي ، عبد الرحمن : تاريخ الدول الإسلامية بأفريقيا ، القاهرة ، 1961 ، ص 146 .

(40) السعدي ، المصدر السابق ، ص 144 .

(41) المنجد ، صلاح الدين : مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، بيروت ، ط 2 ، 1982 ، ص 52-53 .

(42) المرجع نفسه .

(43) مسعد ، مصطفى : ليو الأفريقي ، مجلة جامعة القاهرة ـ الخرطوم ـ العدد الأول ، 1970 ، ص 49 .

الأعم ـ تحتوي على مجموعة قرى متناثرة بدائية في مبانيها ، وأهلها في غاية البؤس[44] .

وتدريجياً ، خطت الثقافة العربية الإسلامية خطوات واسعة في مملكة سنغاي ، فقضت على معظم العادات الاجتماعية الوثنية من سحر وشعوذة ومبالغات في عبادة الأسلاف والانتساب إلى الأمهات دون الآباء . كما غرست فيهم الأمانة والمواظبة على الصلوات والالتزام بها جماعة والاهتمام بتحفيظ ابنائهم القرآن الكريم[45] .

وبالرغم من الفتور الذي دب في المجتمعات الإسلامية الأفريقية ، فإن الحادبين على الإسلام في سنغاي، كانوا يتربصون الدوائر بالحكام الذين يخرجون عن جادة الإسلام . ولعل أقرب مثال لذلك ثورة أهل تنبكتو في عهد أسكيا إسحاق الثاني بقيادة « ساليكي تونكارا » .

الحياة الثقافية في سنغاي

بدأ تيار الثقافة العربية الإسلامية يقوى في سنغاي متسرباً من المراكز الثقافية والفكرية في المغرب الأقصى والأندلس ، وذلك منذ القرن الحادي عشر حيث كان المغرب الأقصى والأندلس في وحدة سياسة في عهد المرابطين ، وبخاصة حين أصبحت تنبكتو وجني تحت حكم مملكة سنغاي . ويصف السعدي تنبكتو بقوله : ـ

« ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سُجد على أديمها لغير الرحمن . . مأوى العلماء العابدين ، ومألف الأولياء الصالحين »[46] كما أشار إلى جني بأنها « مدينة عظيمة ، ميمونة مباركة ، ذات سعة وبركة ورحمة ، جعل الله ذلك في أرضها خلقاً وجبلّة ، وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة »[47] .

وكانت مملكة سنغاي مفتوحة لكافة العلماء من أرجاء العالم الإسلامي . فقد استجاب أسكيا محمد الكبير إلى توجيهات الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي من

---

(44) المرجع نفسه .

(45) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 203 .

(46) السعدي ، المصدر السابق ، ص 21 .

(47) المصدر نفسه .

تلمسان . وكان الشيخ المغيلي ، قد رد على ملك سنغـاي ، حينما شكـا إليه جهـل علماء بلاده بالعربية وبأمور الدين وبعدم أهليتهم الشرعية في تولي المناصب القيـادية في الدولة بقوله : « . . وجب عليك أن تطلب عـالماً من أهـل الذكـر حيث كان ، لأن أهـل الذكـر في هذه الأمـة كالأنبيـاء من الأمم المـاضيـة يجب الاعتمـاد عليهم والسعي إليهم . . »[48] .

وعليه ، وجد العلماء وطلاب العلم رعاية من جانب الـدولة التي وفـرت لهم المكتبات الزاخرة بالكتب الثمينة النادرة . وفي ظل أسرة الأسيكيـين ، وجد الـدعاة تشجيعاً منقطع النظير ، فبلغت الحياة الثقافية والفكرية أوجها . وبمساعـدة الجهات الرسمية ، حيث بدأ الدعاة ، تجاراً كانوا أم فقهاء ، يؤسسون المـدارس والخلوات التي كانت قبلة لأبناء المسلمين والوثنيين ـ على حد سواء ـ دون تمييـز ، الأمر الـذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية بنجاح باهر بين أهالي سنغاي .

وقـد وضعت الدولـة أسساً متينـة في مجال التعليم ، منـذ أيـام أسكيـا محمـد الكبير[49] فتكلفت ببناء مأوى للطلاب ومنحتهم مكافآت ماليـة . كما منحت العلماء رواتب مجزية وسخية وتوافد علماء أجلاء من جميع أرجاء العالم الإسلامي ، لا سيـما من الأندلس بعد سقوط الدولة الإسلامية فيها على يد الفرنجة .

وأصبحت تنبكتو قبلة للأسـاتذة الـزائرين من أهم المـراكز الثقـافية في العـالم الإسلامي ، من فاس والقيروان وطرابلس الغـرب ومصر، للتـدريس في مدارسهـا التي بلغت مـائة وخمسـين مدرسـة في نهاية القـرن السادس عشـر[50] . وكذلـك في جامع سنكري ، وهو الجامع الـذي انشىء في عام 1450 م ، وتـطور إلى جامعـة ، شبيهـة بجامعـة الأزهر . غـير أن مناهـج الـدراسـة في جـامعـة سنكـري مغـربيـة السمـات ، مستمدة من علوم القـرآن والحديث والسيـرة وكتب القاضي عيـاض ، والصحيحين ، وموطأ مالك ، والمدونة وغيرها[51] .

وقد نبغ لفيف من العلماء السودانيين في العلم . ولعل خير مثال لذلك العالم

---

(48) المغيلي ، محمد بن عبد الكريم : أجوبة أسئلة الأمير أسكيا لـلإمام المغيـلي . مخطوطـة مصورة بـدار الأرشيف . بجامعة أحمد بيلو بزاريا ـ نيجيريا ، رقم م : 403 ورقات 13-16 .

(49) عوض الله ، الشيخ محمد الأمين ، المرجع السابق ، ص 211-218 .

(50) محمد كعت ، المصدر السابق ، ص 180 .

(51) محمود ، حسن أحمد : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، القاهرة 1963 ، ص 272 .

السوداني ابن عبد الرحيم الذي عمل أستاذاً زائراً في الأزهر[52] . كما لا يُنسى فضل العلماء الأجلاء أحمد بابا التنبكتي وعبد الرحمن السعدي والقاضي محمود كعت . ويعتبر احمد بابا التنبكتي موسوعة علمية ، إذ بلغت مؤلفاته ما يربو عن الثلاثين مخطوطة ، ومن أشهرها : ـ نيل الابتهاج بالذيل على الديباج ، وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج . وكان أسلوبه في التأليف مغربياً وبالقلم المغربي ، كما هو الحال بالنسبة لرفيقيه السعدي ومحمود كعت اللذين يعتبران مصدرين أساسيين لتاريخ مملكة سنغاي الإسلامية .

ومن المدن الثقافية التي بلغت مكانة مرموقة في مملكة سنغاي مدينة « جني » التي تأتي في المرتبة الثانية بعد تنبكتو . فكانت لديها إتصالات واسعة مع المراكز الثقافية في الأقاليم الإسلامية المعاصرة . كما أن الوعي الثقافي فيها لا يقل عن تنبكتو ، ومما يدل على ذلك ارتفاع أسعار الكتب في أسواقها[53] .

وقد استمرت مكانة كل من تنبكتو وجني الثقافية سامقة ، حتى بعد انهيار سنغاي على يد السعديين ، في أواخر القرن السادس عشر الميلادي ، وذلك لأن الروافد الثقافية ظلّت في انسياب مستمر ولم تنقطع بين شمال القارة وغربها .

التوسع المراكشي وسقوط سنغاي

كانت العلاقات بين سنغاي وبين المغرب الأقصى وطيدة . وقد لعبت تجارة الذهب والملح دوراً بارزاً في تدعيم أواصر العلاقات لعدة قرون .

ولكن ، بعد ارتقاء السلطان أحمد المنصور السعدي لعرش المغرب عام 1578 م انتابه هاجس السيطرة على مصادر الذهب والملح في سنغاي منتهزاً الظروف الدولية والداخلية المواتية للقيام بمشروعه الطموح . فعلى الصعيد الخارجي ، تمكن السعديون من إحراز نصر كاسح على البرتغاليين في معركة القصر الكبير عام 1578 م ، كسرت شوكة الأطماع الأوربية . كما اطمأنوا ـ في الوقت نفسه ـ من هدوء الجبهة الشرقية على الحدود الجزائرية ، ذلك لأن الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على ذلك الإقليم ، قد دخلت في حرب ضروس مع الدولة الفارسية . أما

---

(52) عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص 137 .

(53) عوض الله ، الشيخ محمد الأمين ، المرجع السابق ، ص 215 .

على الصعيد الـداخلي في المغـرب ، فقد خـرج السلطان أحمد المنصـور السعدي لا ينازعه أحد على الملك ، ولا على السيادة على المغرب الأقصى .

وقبل أن يقدم أحمد المنصور السعدي على الشروع في تنفيذ مخـطط التوسـع ، استشار كبار مستشاريه والفقهـاء المقرَّبـين لديـه . غير أنهم لم يتحمسـوا ـ في بادىء الأمر ـ إلى فكرة إرسال الجيوش المراكشية عبر الصحراء إلى مملكـة سنغاي ، خشيـة من إبـادتها بسبب الجـوع والعطش[54] . ولكن السلطان المـراكشي تمكن من تهدئـة مخـاوف من استشارهم ، مـذكراً إيـاهم ، بأن الصحـراء لم تكن في يوم من الأيـام حاجزاً أمام التجار ، فبديهي ألاَّ تكون عائقاً للجيـوش المزودة تـزويداً كـاملاً بـالماء والمؤ ن والعتاد[55] . كما حفزهم بثراء بلاد السودان الغربي بذهبها ورقيقها[56] .

ومن منطلق جس النبض ومعرفة أحوال الجبهـة الداخليـة في سنغاي ، بعث السلطان أحمد المنصور السعدي بمبعوث محملاً بالهدايا إلى الملك الجديد أسكيا محمد الثالث (1582-1586 م) الذي تبوأ عرش سنغاي على أثر وفاة الملك الراحل أسكيا داود .

وحينـما عاد المبعـوث المغربي إلى المنصـور السعدي ، أطلعـه عـلى الأوضـاع المتـردية في سنغـاي ، نتيجة للصـراع حول كـرسي الحكم ، فضـلاً عن التقـاعس وفساد الأخلاق . وقد أعطانا صاحب الفتـاش صورة قـاتمة للوضـع موضحـاً أنه : « لمـا فسد أمـر سنغاي وشتت الله شملهم وحاق بهم مـا كانـوا يستهـزئـون بتضييـع حقوق الله وظلم العباد . . وكانت بلد كاغ [كوكو] في أيام إسحاق في غاية الفسق وإظهار الكبائر . . »[57] .

ونتيجـة لما تجمَّـع لدى السلطان أحمـد المنصور السعـدي من معلومات حـول سنغاي ، قام بـاستفزاز أسكيـا إسحاق الثـاني (1588-1591 م) الذي اعتـلى ملك سنغاي بعد وفاة أسكيا محمد الثاني ، وذلك بأن طلب من الأخير تسليم مناجم ملح تغازة للمغرب . فأشار هذا الطلب حفيظة أسكيا إسحاق ، وحرر رداً نابياً وجـافياً

---

(54) Oliver, R., **The Cambridge History of Africa**, Vol. 3. P.413.

(55) نفسه .

(56) نفسه .

(57) محمود كعت ، المصدر السابق ، ص 152 .

للسلطان المغربي ، مؤكداً له فيه عدم التفريط فيما يمس سيادة بلاده[57] .

وبتفاقم الموقف وتصاعده ، أعد سلطان المغرب جيشاً بقيادة مولاه الأندلسي الأصل « جودر » ، يقدر تعداده بحوالى أربعة آلاف[59] مقاتل مزودين تزويداً كافياً بالبارود والأسلحة النارية .

هذا ، وقد تحرك جيش « جودر » من العاصمة مراكش في أكتوبر 1590 م ، فواصل مسيرته حتى وصل إلى منطقة « كبرا » (Kabira) الواقعة على منحى نهر النيجر في فبراير 1591 م ، بعد أن هلك نصف جيشه في الصحراء جوعاً وعطشاً[60] .

ولم يكن جيش أسكيا إسحاق الثاني مهيئاً لملاقاة الجيش المغربي ، ذلك لاستبعاد الملك أن يقدم الجيش المغربي على اختراق الصحراء . ومن ثمَّ ، كانت استعداداته عشوائية وغير منظمة . ورغم أنه قد استطاع ـ في اللحظات الأخيرة ـ أن يقذف « . . بثمانية آلاف فارس مقاتل . . وتسعة آلاف وسبعمائة راجل »[61] ، في المعركة ، فإنه لم يفلح في الصمود أمام الأسلحة النارية .

فتقدم الجيش المغربي حتى دخل العاصمة « كوكو » ظافراً ، ثم تلتها تنبكتو وغيرها من مدن سنغاي . . وهكذا سقطت سنغاي في يد توسع السلطان أحمد المنصور السعدي .

بيْد أن مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ظلت سائدة في السودان الغربي ، ولم تنته بسقوط تنبكتو في عام ١٥٩١ م ، إذ حافظ المسلمون الأفارقة على أنماطهم الإسلامية الموروثة ، بكل فخر واعتزاز . فظلت هذه التنظيمات الإسلامية متماسكة حتى مجيء الاستعمار الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي .

وقد بدأ الاستعمار الأوربي في تشجيع التبشير المسيحي دعماً لتمكينه من السيطرة على تلك البقاع ثقافياً وعسكرياً وإقتصادياً ، فضلاً عن أنه سعى إلى عزل

---

(58) عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص 53 .

(59) Bovill E. W. **Op cit,**, P. 167.

(60) Oliver, R., **The Cambridge History of Africa,** P. 414.

(61) محمود كعت ، المصدر السابق ، ص 147 .

الوطنيين الأفارقة ـ الذين كانوا يعيشون في الأقاليم التي كانت تابعة لمملكة سنغاي ـ عن مراكز الإشعاع الإسلامي في الشمال الأفريقي والمشرق العربي .

غير انه يمكننا القول ، أنه بالرغم من هذه المحاولات المتنوعة من قبل الاستعمار الفرنسي لمحاربة الإسلام والثقافة العربية ، فإن ثقة أهل سنغاي وأهل السودان الغربي جميعهم في معتقداتهم الإسلامية قد جعلت روح الإسلام راسخة في نفوس أهالي تلك النواحي ، لأنهم أدركوا حقيقة أن المسيحية التي حاول المبشرون الأوربيون نشرها في ربوعهم قد اقترنت بأنها دين الرجل الأبيض وانها جاءت في ركاب الاستعمار الأوربي ومحققة لاطماعه الاستعمارية في نهب خيرات البلاد .